بني عليها التحليل، وهوية كاتبها، تجعل من هذا الكتاب، بالفعل، مرجعاً من الدرجة الممتازة لأي باحث في موضوع صناعة السياسة الخارجية الاميركية، ومصدراً، لا غنى عنه، لمن يريد فهم سيرورة صناعة تلك السياسة تجاه منطقتنا. وان كان لنا من ملاحظات، فهي لن تؤثر، بحال، في هذا التقويم الأولي للكتاب.

ومن نافل القول ان نوضح، بادىء ذي بدء، انه من العسير ان نقدم مراجعة نقدية لاثنى عشر فصلاً على قدر كبير من التخصص والشمول والعمق. ولكن تناول مفاصل هذه الفصول، وعرض أفكار الكاتب الاساسية، من شأنهما أن يقدما الى القارىء فائدة لا غنى عنها، الا بمراجعة الكتاب نفسه.

يحدد كوانت في الفصل الاول موضوع كتابه في «الكيفية التي استخدمت بها ادارة كارتر نفوذها في التوصل الى اتفاقية بين مصر واسرائيل، وفي كيفية انسجام ذلك مع الفهم الاستراتيجي الاميركي للشرق الاوسط» (ص ٥). موضوع الكتاب، اذاً، هو «قصة» بكل ما تنطوي عليه هذه التورية من حبكة درامية، ابطالها الرئيسون هم على التوالي: كارتر، أنورالسادات، ومناحيم بيغن.

يوضح الكاتب في الفصل الثاني صياغة السياسة الخارجية الاميركية بكل تعقيداتها وملابساتها: فهناك التأثير الذي لا يمكن تلافيه للدورة الرئاسية، التي تمتد أربع سنوات، في صياغة السياسة الخارجية؛ فتكون السنة الاولى فترة اختبار للمبادىء والافكار في اطار من الواقعية السياسية؛ على الاقل في التفاصيل ان لم تكن في الاسس. أما السنة الثانية من الفترة الرئاسية فتتصف، اجمالاً، بدرجة أكبر من البراغماتية والواقعية، فتطغى استمرارية النظام السياسي الاميركي على المبادىء التي كان رسمها المرشح في أذهان الناخبين. الا ان ذلك لا يمنع من ان تتلون بعض مبادرات الرئيس الخارجية بمسحة من الايديولوجية وببعض الافكار المسبقة. هنا، يجب الافتراض أن تكون السنة الثالثة من سني الرئاسة هي الوقت المناسب لجني ما غرسته ادارته من نبت. وحين تقترب عقارب ساعة السنة الرابعة، لا يجد الرئيس شيئاً سوى الاشادة بانجازات الماضي والتلميح الى نجاحات المستقبل، اذا ما تمت اعادة انتخابه لولاية ثانية (ص ٦ ـ ٢٧). هكذا تتغير الادارات، فيمر الرؤساء، ويذهب معهم وزراء خارجيتهم ومستشاروهم للأمن القومي. وفي كل تحول، ننتظر ما سوف يفعله الخلف؛ وفي اعتقادنا، ان في واشنطن امكانيات حل ممكن لبعض ما يصيبنا. الا ان كوانت يسترعي انتباهنا الى بعض ما يصطدم به أي رئيس يلتفت صوب منطقة الشرق الأوسط من عقبات؛ منها غياب الاعتدال والاستقرار في سياسة الدول على الصعيد الداخلي، وفي تعاملها مع بعضها البعض، وفي المقدم منها، طبعاً، النزاع العربي ـ الاسرائيلي، وخاصة الجانب الفلسطيني من هذا النزاع؛ ومنها، أيضاً، الانحياز الاميركي الى اسرائيل (ص ١٢ ـ ١٣). وعلى هذا الاساس، يتوجب على أي رئيس البدء بمبادرات دبلوماسية حيال المنطقة، في وقت مبكر من الفترة الرئاسية وليس قرب نهايتها (ص ٢٨).

لقد أثبت الكاتب، في هذا الفصل، عدداً من المؤهلات المثيرة للاعجاب والمتأتية ولا شك عن امتزاج التجربة الدبلوماسية بالممارسة الفكرية المتقدمة. ان الـ ٢٤ صفحة التي تؤلف هذا الفصل، تشكل، برأينا، خير ما يمكن قراءته اليوم عن صناعة السياسة الخارجية الاميركية ازاء منطقة الشرق الاوسط. وحسناتها متعددة: فهي مكثفة بصورة يصعب معها القفز عن الفقرة الواحدة منها دون ضرر؛ وهي تنم عن معرفة دقيقة، وصميمة، بتطور الفهم الاميركي لحقائق المنطقة؛ وهي مبنية، اخيراً، حول اطار نظري متين، يتناول كل العهود، منذ نيكسون حتى ريغان، وقد بيّنت حدودها بدقة. ونحن نوافق كوانت في مجمل ما اورده، ونعجب بقدرته الفائقة على التركيب بين عدد من العناصر المختلفة، سمحت له بتقديم نظرية موجزة عن عملية صنع السياسة الخارجية الاميركية، تدهش في زواج النظام السياسي الاميركي بالنظام الاقليمي في الشرق الاوسط.

هام جداً ان يتذكر القارىء العربي هذه الامور الغائبة عن الادبيات العربية. ان معظم الكتابات العربية مهملة، اجمالاً، لمسار النظام السياسي الاميركي، ومفرطة، اجمالاً، في اهتمامها بالنواحي السياسية المباشرة (قيام دولة فلسطينية، العلاقة مع اسرائيل، الموقف من الدول العربية «المعتدلة»، الخ)، وحري بها ان تستوعب اكثر هذا المستوى من التحليل.